

العدل والرحمة.. أساس لمفهوم السلام



العدل صفة من صفات الله، فما (يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَإِنْ هُوَ أَقْرَبُ لِلْمُتَّقِّوِي) (النحل/ 76 و90). ويدعو القرآن الكريم الناس إلى الحكم بالعدل ويقول: (إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلْمُتَّقِّوِي) (المائدة / 8) و(وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) (الذِّسْنَاء/ 58). والرحمة صفة أخرى من صفات الله، فما (كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) (الأనعام/ 12). وهذا الالتزام الإلهي بالرحمة ورد في السورة ذاتها مرّة ثانية تأكيداً لمعناه، (فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) (الأنعام/ 54). وهكذا فإنّ العدل والرحمة من الصفات الإلهية العظيمة التي أراد الله تعالى للناس أن يعيشوا روحها ومضمونها العملي في أكمل صورة، حتى ينعكس ذلك على واقع حالهم إحساناً وخيراً وسلاماً وسعادة.

للعدالة والسلام أهمية كبيرة في حفظ المجتمع واستقرار الإنسان وتوازن الحياة، لأنّ عكس ذلك يعني الظلم والخوف والقلق والخوف التي لا تجلب إلا الدمار وتهدم البنية الإنسانية والحضاري. هناك حدثان لرسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يربطان رحمة الله للإنسان، برحمة الإنسان للإنسان. يقول في الحديث الأول: «ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء». فالطريق إلى رحمة الله تمرّ عبر رحمة الإنسان أخيه الإنسان، بل إنّ ممارسة الرحمة الإنسانية مدخل أساس لاستحقاق الرحمة الإلهية. ويقول في الحديث الثاني: «الراحمنون يرحمون الرحمن»، وفي ذلك تشديد واضح و مباشر على العلاقة المباشرة بين الرحمة الإلهية المنزّلة على الناس، والرحمة الإنسانية المتبادلة بين الناس.

من وصايا الإمام الكاظم (عليه السلام) لتلميذه هشام بن الحكم: «يا هشام، مكتوب في الإنجيل: طوبى للمترحمين، أولئك هم المرحومون يوم القيمة»؛ هؤلاء الذين يعيشون في مجتمعاتهم ليرحم بعضهم بعضاً. قضية الرحمة في الإسلام هي من القضايا القيمية الممتدّة في كلّ جوانب الحياة. ونحن نعرف أنّ الرسالة كلّها، والرسالة كلّهم، هم رحمة للعالمين، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلنَّاسِ) (الأنبياء/ 107)، هم رحمة في الخلق، وفي القيمة، وفي الأسلوب الذي يليين فيه القلب، ويلين فيه اللسان، وقد قال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةِ مِنْهُ لَنَذَّلتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَّاماً غَلِيظَ الْقَاتِبِ لَازْفَضَّهُوا مِنْهُ) (آل عمران/ 159).

أن ترحم الإنسان الآخر، بأن ترحم عقله، لتخاطبه بمستوى عقله، وأن ترحم قلبه، لتفهم طبيعة التعقيدات والهموم أو الأحزان التي تعيش في قلبه، وأن ترحم واقعه، فتقدر طروفه في حركة الواقع، كما أنّك ترحمه لتشفق عليه، وتساعده، وتضمّد جراحه، وتحفّف آلامه. ولذلك فإنّ الكلمة (الرحمة) هي الكلمة التي تدخل في مفاصل علاقات المجتمع بعضه مع بعض، وإنّ سبحانه وتعالى يريد للمجتمع أن يرتكز على أساس الرحمة، ليكون المجتمع هو المترافق فيما بين أفراده.

اليوم، ما أحوجنا إلى أن نلتقي حول العدل والرحمة، وأن نستقي منهما كلّ معاني الخير والتواصل الحيّ الذي ينعكس سلاماً روحياً من خلال إطلاق الكلمة المسؤولة والموقف المسؤول والواعي والحكيم الذي يعيد الحقّ إلى نصّابه، ويتجاوز كلّ الحسابات حفاظاً على السلام والوثام، بما يفسح المجال للحياة أن تستمر وتقديم بالشكل الطبيعي دون عوائق، ولقد كان لنا في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمّة من أهل بيته (عليهم السلام) والعلماء الصالحين المجاهدين الصابرين قدوة حسنة في تأكيد إقامة العدل والسير في خطّ الرحمة والإحسان، لما فيه من إقامة أمر الدّين وخير الإنسان والحياة.